

۱۵

إلى شباب المغرب العربي
الذى يرى في التراث المشرق لامته العربية
أساساً لنهضة أوروبا الحمدلية

١- إله دار بوار موسى يحيى
ما يستعمل بين المطران

عشر : الحروب الوراثية وحرب الاستقلال الأمريكية وقيام الثورة الفرنسية التي انتهت ب نهاية القرن الثامن عشر في سنته الأخيرة.

ولابد في الختام من الاشارة الى ان دراسة حرب الاستقلال الأمريكية وقيام الولايات المتحدة ضمن احداث القرن الثامن عشر الوراثية ضرورة تاريخية لارتباط هذا الحدث بأحداث اوروبا وتطوراتها بشكل لا يمكن التفريغ فيها، فسكان المستعمرات الأمريكية هم سكان اوروبا، ودفعه المهاجرة الى القارة الأمريكية وإيادة سكانها الأصليين للحصول على الثروات والمغانم أو الهروب من الضطهاد الطائفي هي دوافع اوروبية. وقيام حرب الاستقلال الأمريكية قضية اوروبية بحتة رغم تباعد المسافات الجغرافية بين اوروبا وامريكا. لذلك فإن استقلالية التاريخ الأمريكي تبدأ مع قيام الولايات المتحدة الأمريكية وليس قبلها.

المؤلف

الدكتور محمد مظفر الادهمي

يقسم المؤرخون تاريخ اوروبا الى ثلاثة مراحل : الاول هي التاريخ القديم الذي تمثله الامبراطورية الرومانية. والثانية هي التاريخ الوسيط والذي يسمى غالبا بالعصور الوسطى ويتميز بسيطرة الاقطاع والكنيسة. أما المرحلة الثالثة فهي التاريخ الحديث الذي يعقبه التاريخ المعاصر. ولم يتتفق المؤرخون لحد الان على فروق بين الاثنين مثلما في التاريخ القديم وال وسيط ومن الأفضل أن يسمى بالتاريخ الحديث والمعاصر لعدم وضوح ميزة كل منها، لأن التاريخ المعاصر هو امتداد للتاريخ الحديث بكل صفاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ظهر النظام الاقطاعي في اوروبا نتيجة عوامل متعددة يأتي في مقدمتها انهيار الامبراطورية الرومانية سنة 476 م وتتدفق القبائل الجرمانية وغيرها لتشريع القوضي والتدهور وضياع الامن في اوروبا الغربية، ورغم اقام الامبراطورية الكارولنجية المعروفة بامبراطورية شارلمان الا ان ذلك لم يمنع من استمرار عدم الاستقرار بسبب الاسس التي قام بها تلك الامبراطورية او النزاع والحروب التي قامت بين ورثة عرش الامبراطورية، فالاسس كانت تحمل في طياتها مقومات التنظيم القبلي الذي يقوم على اساس احترام سلطة رئيس القبيلة مما يؤدي الى رفض السلطة المركزية التي تحد من السلطات المطلقة لرئيس القبيلة. بمعنى ان مفهوم الدولة يصطدم بمفهوم السيادة القبلية. فكان لهذا العامل اثره وأهميته في نشوء النظام الاقطاعي خصوصاً وان التنظيم القبلي الجرمانى كان يميز استخدام العبيد. يضاف الى هذا ان الملوك الجرمان لم يتمكنوا من السيطرة على المساحات الواسعة التي حكموها.

ويانهيار امبراطورية شارلمان تصاعدت الحروب الداخلية يرافقها غزو قبائل الفايكنك (النورمانديون) من الشمال فانتشرت القوضي والاضطهادات وانعدام الامن مما وفر ظروفاً جيدة لسيطرة النظام الاقطاعي. ذلك ان العوامل المذكورة اعلاه قد لعبت بمحملها وعلى مر السنين دوراً أساسياً في بلورة النظام الاقطاعي واستقراره في القرنين التاسع والعشرين الميلادي.

وسي من قوة للنحو عن حقوقك» ويسلم السيد لطالب التبعية عادة عصاً أو سيفاً رمياً يسترجع منه في نهاية حفل التولية.

أدى توسيع الارضي والاقطاعيات التابعة للملك أو السيد الى صعوبة ادارتها والسيطرة عليها، لذا اضطر الاقطاعيون الى تسليم اجزاء من ممتلكاتهم الى وكلاء لهم مما جعل اوروبا الغربية عبارة عن اقطاعيات صغيرة تتمتع كل منها بالاكتفاء الذاتي وتلتزم بالتقاليد والاعراف التي اقرتها لضروf نشأة الاقطاع. واصبح المجتمع الاقطاعي مقسما الى ثلاثة طبقات بارزة هي :

1 — طبقة الاسياد : وهو الاقطاعيون الذين يملكون الارض وما عليها من مستلزمات الانتاج مثل الطاحونة والفن والمعصرة. كما كانوا يتمتعون بمحصنة قضائية وعسكرية. وقد تطور افراد طبقة الاسياد ليصبحوا نبلاء (Baron). ويدخل رجال الدين الكبار ضمن طبقة الاقطاعيين لامتلاكهم الارضي رغم أنهم يتميزون عن النبلاء في مهمتهم واهتماماتهم : وفي بعض الاحيان يتحول النبيل الى رجل دين.

2 — طبقة الفرسان : لا يفرق بعض المؤرخين بين هذه الطبقة وطبقة الاسياد بل انهم يعتبرون النبلاء ورجال الدين والفرسان طبقة واحدة تقابلها طبقة الفلاحين الافقان. ويعود ذلك الى ان الفارس هو النبيل او بالاصح ابن النبيل الذي يؤخذ للتتدريب العسكري منذ سن الحادية عشرة ويستمر في تدريسه حتى السادسة عشر ليمتحن بعدها في حفل خاص لقب (فارس) وهذه الطبقة هي بمثابة الضباط القياديين في العصور الحديثة.

3 — الطبقة العامة : وتشكل غالبية المجتمع التي يؤلف الاقنان غالبية افرادها. والباقي منها الفلاحون الذين يتمتعون ببعض الحرية مثل حرية اختيار السيد وحق الزواج وقلة الاعمال الشاقة. اما الاقنان فهم الذين ارتبطوا بالارض فاصبحوا بتطور الاقطاع ملكاً للاقطاعي مثل الأرض والماشية ومستلزمات الزراعة فقدوا حريةهم كلية بحيث لا يمكن للقُن أن يغادر مزرعة السيد الى مزرعة أخرى، وعندما تنتقل ملكية الارض الى سيد آخر فإنه يتنتقل معها واذا ما أراد القُن أن يرسل ابنه الى المدرسة عليه ان يدفع عنه تعويضاً لسيده، واذا تزوج القُن وكان

ان هذه الفوضى الشاملة التي تعرضت لها اوروبا الغربية قد دفعت الناس الى طلب الحماية والامن ولم يكن امامهم غير الاقوياء من الامراء والمنفذين الذين أصبحوا ضعافاً الا انهم اقوى من هم ادنى منهم . ولما كان هؤلاء بحاجة الى اتباع مسلحين يساعدونهم في التغلب على ما يواجهونه من اخطار. فقد انضوى تحت الويتهم العديد من الاسر التي لا تملك الأرض، فكان الامير أو الملك يمنع الاسرة أو الفرد اقطاعياً من اراضيه ليعملوا فيه وليكونوا جنوداً له. اما صغار ملوك الارضي فقد دفعتهم الفوضى الشاملة الى الدخول في حماية من هم اقوى منهم مقابل تنازلهم لهم عن اراضيهم، ثم يعود ذلك المالك المتنازل عن ارضه فيتسلمه من حامييه على شكل اقطاع.

المقام اوروبا

لقد كان ظهور الاقطاع خطوة الى الامام انقذت أوروبا من الفوضى التي اجتاحتها وأمنت للفرد الحماية والطمأنينة، فهو الوسيلة التي ارادت بها اوروبا ايجاد نوع من الحكم يفي باحتياجات الفرد. لذلك كان الاقطاع عبارة عن عقد اجتماعي مقبول يحدد واجبات وحقوق الاقطاعي وتابعه بشكل متبادل وملزم للطرفين يقوم السيد (الاقطاعي) بموجبه بتقديم الحماية والارض التي يقتات منها التابع وخدم فيها لصالح السيد. وعلى التابع ايضاً ان يحترم السيد وأن يؤدي الخدمة العسكرية في حالات الحرب وأن يفدي سيده اذا وقع في الأسر، ويدفع له الضرائب مثل ضريبة الرأس السنوية وضريبة الصيد أو الرعي وان يحسم قضيائاه امام محكمة السيد.

لم يكن عقد الاقطاع مكتوباً الا في حالة استثنائية، وعموماً يجري العقد وفق مراسيم خاصة تسمى بحفل الولاء أو القسم. ففي الولاء يجتمع طالب التبعية على ركبته ويضع يديه مضبوتين في يدي السيد اشارة الى انه يفوض اموره اليه ويقدم له الولاء، ثم يشير السيد على طالب التبعية بالوقوف وبقبله. عندئذ يردد طالب التبعية القسم بالإنجليز وهو :

«سيدي ابني ادخل في تبعيتك وعهدك وقد اصبحت منذ الان رجلك بالقول والاشارة وانتي اقسم وأعد ان احافظ على العهد والولاء لك امام الآخرين وان ابدل كل ما في

في الفترة ما بين 1305 - 1377 فضل البابا الجديد كلمانت الخامس البقاء في موطنها بفرنسا بدلاً من الانتقال إلى روما مما أفقد البابوية الشيء الكثير من زعامتها وسمعتها. وقد اطلق على هذه الفترة التي استمرت حوالي اثنين وسبعين سنة اسم (الأسر البابوي). وما زاد في انهايارة هيبة المركز البابوي ما حدث سنة 1378 اسم (الاسير البابوي). وما زاد في انهايارة هيبة المركز البابوي ما حدث سنة 1378 عندما وقع (الانقسام البابوي العظيم) حين انقسم الكرادلة فاختاروا اثنين من البابوات، فسرت عوامل التفكك والضعف في الكنيسة وعاليها المسيحي. ولقد ترتب على الاسر والانقسام البابوي ان أصبحت سلطة البابا موضع نقاش وجداول كان الترف وجمع المال وتحقيق المصالح الخاصة أحد أركانه الأساسية مما دفع الكثير من المفكرين والمصلحين إلى المطالبة بالاصلاح الذي شكل أحدى الظواهر الأساسية للعصور الحديثة فيما بعد.

من جانب آخر فإن الكنيسة قد زرعت ركناً آخر في عملية ضعفها التي ترتب عليها ضعف النظام الاقطاعي وإنها، وهي شنها الحروب الصليبية على المسلمين حيث انهكت هذه الحروب البلاء ورجال الدين واستنزفت الكثير من قواهم مما جعلهم ضعفاء أمام القوى التي ظهرت فيما بعد تدعى إلى نهضة أوروبا وابعاثها. ولا شك أن احتكاك الأوروبيين بالالمسلمين من خلال هذه الحروب قد ساعد على نقل الكثير من مظاهر الثقافة والعلم فبدأ عصر الترجمة في أوروبا حين ترجمت علوم اليونان من العربية وبدأت شريحة معينة من المجتمع، من عرروا فيها بعد بالطبقة الوسطى، تتجه إلى تحدي مبدأ الكنيسة بالتسليم لكل شيء تقوله واتجهوا إلى نقد ما كان شائعاً حتى في الدين نفسه، فظهر (الهرطقة) الذين تعرضوا لمساوي الكنيسة بالنقد والتقييع. كما انتشرت في أواخر العصور الوسطى الجامعات، ورغم أن الكنيسة كانت تختكر الدراسة والتدريس فيها إلا أن ذلك ساعد على نشر العلم وتعزيز الثقافة بعد أن بدأت الجامعات تنتشر في كل مكان.

ومن العوامل الأساسية الأخرى التي اسقطت النظام الاقطاعي هو التحول الذي شهدته الفترة الأخيرة من العصور الوسطى، فقد بدأت الثورة التجارية ونمت المدن وتطورت فأدى ذلك إلى ظهور طبقة جديدة لا تستمد اسباب حياتها من الأرض الزراعية ولا تحتاج الخضوع إلى نفوذ وتسلط الاقطاعيين مثل ابائهم

الزواج يستلزم انتقاله إلى الأقطاعية التي توجد فيها الزوجة فعليه أن يدفع تعويضاً أيضاً ومثل هذا ينطبق على الفتاة التي تتحقق بزوجها في ضياعة أخرى. ووصلت التبعية المطلقة إلى حد حق السيد في قضاء الليلة الأولى مع عروس رقيقة.

لقد كانت الكنيسة ركيزة أساسية للأقطاع، فقد التقت مصالح رجال الدين مع المالك الأقطاعيين حين حولت الكنيسة المفاهيم الدينية السمحاء إلى غطاء يمنع تمدد الأقنان على واقعهم المهيمن من خلال التأكيد على الحياة الآخرة وأهمال الحياة الدنيا مما يعزز القناعات عند الطبقة العامة أن حياتها في ظل الأقطاع أمر لا أهمية له مهمماً بلغت من السوء ما دامت الروح هي الأساس في حكم الآخرة. مقابل هذا الشيء تمعن رجال الدين، وخاصة الكبار منهم بامتيازات واسعة وتحولوا إلى أقطاعيين يعيشون حياة متوفة وماجنة لا تسجم مع مواقفهم الدينية ولا تتفق مع تعاليمهم للناس. ولقد بدأ تحول رجال الدين إلى أقطاعيين عندما أعطي الحق للسيد أو النبيل تعين أسقف أو كبير الأساقفة في أقطاعيته، فكان النبيل ينحى أقطاعياً من عنده، فتكاثرت الأقطاعات الكنيسة حتى أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأرض إضافة إلى أنها كانت تتلقى المدايا والنفائس ونصيب من الإيرادات الاقطاعية بمختلف إشكالها ، بما فيها الأرضي والأقنان، من المالك والبلاء تكفيراً عن ذنوبهم وخطاياهم ولükسب مساندة الكنيسة لهم. ثم تعددت مسؤوليات الكنيسة لتتصبح مركزاً للتجارة والبيع وكذلك التجارة بالممتلكات بما فيها المناصب الدينية . وهكذا ارتبطت الكنيسة مصربياً بالنظام الاقطاعي وتطورت سلطاتها لتشمل الأمور الدينية والدنيوية ولاشك أن تبنيها مقاومة المسلمين في إسبانيا وإثارة الحروب الصليبية قد جعلها أقوى سلطة من قبل.

وبقدر ما كانت الكنيسة ركناً أساسياً للأقطاع فإنها أصبحت عاماً مهماً في سقوطه لعوامل عددة منها أن الكنيسة تحولت إلى مؤسسة فوقية بعيدة جداً عن المبادئ الدينية. وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر اصبح البابا يجمع بين صفاته الدينية كرئيس للكنيسة وصفة دينية مكنته النظام الاقطاعي من اكتسابها فاصبح حاكماً دينياً له بلاط يمتاز بالترف والانحراف. إلا أن هيبة البابا بدأت تتدحرج منذ القرن الرابع عشر، وهو القرن الذي شهد بدايات ضعف نظام الأقطاع مع تنامي الأسس التي قامت عليها النهضة الأوروبية في القرنين اللاحقين،

الاقنان وبذلك لم تعد الأرض مصدر الانتاج واساس الثورة خصوصا بعد اكتشاف العالم الجديد وتدفق الذهب. وبنامي هذه الطبقة التي سميت (الطبقة الوسطى) وزيادة قوة واتساع حجمها، تعارضت مصالحها بمصالح القطاع الذي كان يقيم الحواجز والحدود بين القطاعيات مما يعرقل نمو التجارة وتطورها فكان لابد من الصدام. وقد وجدت الطبقة الوسطى في ملوك أوروبا، الذي كانوا توافقون لاعادة سلطتهم السياسية، خير حليف في الكفاح ضد القطاع للقضاء عليه، فأهدت

الأنظمة الملكية بالمساعدة المادية لاعداد الجيوش. وما ساعد في تحقيق اهداف هذا التحالف اكتشاف البارود الذي استخدمته الجيوش الملكية في ذك قلاع ومعاقل القطاعيين.

وهكذا تظافرت العوامل التي اسقطت القطاع بعد ان انتفت الحاجة اليه وأصبح على مر الزمن نظاما قاسيا مضطهدا للانسان. الا ان سقوط القطاع لم يأت بشكل حاد ومفاجئ وإنما كان تدريجيا، ومن الأمثلة على ذلك ان الكثير من الاقنان بدأوا يتسربون للعمل في التجارة فنقلوا لاقرائهم صورة جديدة من حياة الحرية ، لهذا بدأ الاقنان يعلنون العصيان على سادتهم وشكلوا «الجمعيات الريفية» واضطر القطاعي ان يستبدل الانسان بالحيوان في جر الحراث أو ادارة دواいib الماء في الساقية فكان ذلك احدى اشارات ضعف سلطة القطاعي. لقد مهدت تلك التطورات الطريق للطبقة الوسطى والملكيات القومية الى توجيه الضرية الاخيرة للنظام القطاعي بركتيه (النبييل ورجل الدين) فدارت حروب مع الكنيسة أيضا انتهت بزوال ذلك النظام.

واخيرا ولكي تكون الصورة واضحة لابد من الاشارة الى أن بداية عصر النهضة الاوروبية متداخل مع الفترة الأخيرة من النظام القطاعي اذ لا يمكن لفصل بينهما وهذا فإن معظم العوامل التي اشرنا إليها كسب لسقوط القطاع منها فيما بعد مظهرا من مظاهر النهضة الاوروبية وعصورها الحديثة.

ا مداد إلى المؤرخ المتربي الموجه (مستقل عن المسند)

الباب الأول

الفصل الأول

عصر النهضة أو الانبعاث

The Renaissance

لم يكن الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة مفاجئاً أو واضحأً أو محدداً بعده من السنين، وإنما تم بشكل تدريجي. ذلك أن لكل عصر جذور تمت في أعماق العصر الذي سبقه، ولابد من وجود فترة انتقال طويلة تصادم وتتفاعل فيها المثل والقيم والمفاهيم القديمة مع الجديدة حتى تستقر في أذهان الناس عملية التغيير ليبدأ بالتدريج عصر مختلف عما سبقه في كل مناحٍ حيّة. ويعتبر عصر النهضة الذي يطلق عليه أيضاً (البعث الجديد) أو (الانبعاث) أو بالمعنى الحرفي لكلمة Renaissance (الولادة الجديدة)، مرحلة انتقال بين العصور الوسطى والعصور الحديثة مع أن بعض المؤرخين والباحثين يعطونه طابعاً مميزاً ويصنفونه على أنه حقبة تاريخية على شيء من الاستقلال عما سبقة ولحقها رغم التصاقها إلى حد كبير بالعصور الحديثة. ويبتعد دعوة هذا الرأي على الخصائص والسمات التي تميز بها عصر النهضة، إلا أن الأدلة العلمية تدفع معظم المؤرخين إلى الاعتقاد بوجود تفاعل وصراع في الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة كان أساسه عصر النهضة والانبعاث.

لم يظهر عصر النهضة مرة واحدة في كل أنحاء أوروبا، فقد اختلف من بقعة إلى أخرى زماناً ومكاناً، فايطاليا سبقت غيرها من دول أوروبا في النهضة التي بدأت فيها قبل منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، في حين لم تظهر النهضة في إنجلترا إلا في الربع الأخير من القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر

2 — ان ممارسة حكام وسكان المدن الايطالية للتجارة واعمال النقل البحري ايام الحروب الصليبية وبعدها قد ساعدهم على جمع المال والذهب مما جعل هذه المدن قادرة على القيام بحركة النهضة والانبعاث. كما اصبحت هذه المدن مركزاً لنقل التراث والثقافة العربية الاسلامية ومدارسها الفلسفية الى اوروبا اضافة الى اهتمامها بالثقافة اليونانية التي عرفوا عنها عن طريق العرب.

3 — ان التنافس التجاري والاقتصادي بين امراء المدن الايطالية وطبقتها الوسطى قد خلق في اواخر العصور الوسطى نوعاً من التعصب المحلي لكل مدينة او منطقة ايطالية. وقد ظهر ذلك بشكل واضح في مطلع عصر النهضة حين تنافس هؤلاء فيما بينهم في صرف المبالغ الكبيرة لتشجيع الاداب والعلوم والمساهمة في انشاء المكتبات العامة والخاصة ورعاية فنون النحت والتصوير والعمارة، فاستفاد من ذلك كثير من الفنانين والادباء والفلسفه والمؤرخين بمحصولهم على رعاية الحكام والاثرياء مادياً ومعنوياً مما دفعهم الى ان يقدموا نتاجاً افضل وأوفر وخصوصاً في مجال الفن والفكرة.

قامت فلسفة العصور الوسطى على انكار قيمة الانسان كعقل وروح وجسد له حقوقه الانسانية مثلما عليه من واجبات. فلكي يحافظ النظام الاقطاعي على نفسه كان لابد من الغاء حق الانسان في التطلع الى الافضل فساعدته الكيسنة بتلطير مفهوم انكار النفس والذات باطار لاهوتي يؤكد ان الحياة الآخرة هي الهدف ولا قيمة للحياة الدنيا، وان على الانسان ان لا يتعرض على ما كتب له مهما بلغ من سوء، مباقضة بذلك المبادئ الدينية التي تؤكد على الانسان ودوره في الحياة الدنيا والآخرة وهكذا لم يكن هناك مجال للفرد كي يبدع أو يتذكر بل كانت التقليد والاعراف السائدة تحظى كل رغبة تهدف الى تحكيم العقل واتباع المناقشة سبيلاً للوصول الى الحقيقة وكرد صريح وواضح جاءت النهضة بفلسفه تناقض تماماً فلسفة العصور الوسطى بل تتحداها في التأكيد على الانسان ودوره في الحياة. لذلك عرف بوركهارد عصر النهضة بأنه ^{الحقيقة} التاريخية التي اكتشف فيها الانسان ذاته وتعرف الى نظرية جديدة للحياة والكون الا أنه لم يصبح عدواً للعقيدة الدينية باكتشافه ميلاً انسانياً الى تأمل هذا العالم والاستغراف فيه ومحاولة سير غوره: فحاول فصل حركته عن الدين أو التوفيق بينهما، وهناك من شذ عن

وبقيتها فرنسا بعض الشيء وتأخرت روسيا في دخولها العصور الحديثة الى القرن الثامن عشر. علماً ان عصر النهضة في ايطاليا كان قد توقف في تطوره حتى القرن السادس عشر بسبب تعرضها للغزو على يد الملك الفرنسي شارل الثاني في أواخر القرن الخامس عشر (ابتداءً من سنة 1494) مما خلف فيها الكثير من الخراب والدمار. لهذا لم تسبق ايطاليا بقية اوروبا في الخطوات التي تلت عصر النهضة وإنما زامتها.

ويعد سبب ظهور أول بوادر الانبعاث الحضاري في ايطاليا قبل غيرها من دول اوروبا الى ان ايطاليا كانت مركز الامبراطورية الرومانية ونواتها وعليه فان سقوط هذه الامبراطورية لم يؤد الى تحول ايطاليا نحو الاقطاع بشكل تام كما حدث في فرنسا والمانيا مثلاً. فقد حافظت مدن ايطالية عديدة على مظاهر الحياة المدنية ونشطت فيها التجارة والطبقة الوسطى في الوقت الذي أطبق نظام الاقطاع بزمامه على غرب اوروبا. فبقيت المؤسسات السياسية والاجتماعية لهذه المدن، ولもりوتة من ايام امبراطوريتهم الرومانية، حية فاعلة مثل البندقية وجنوة ونابولي وبيزا وفلورنسة التي شكلت امارات ايطالية مستقلة. ولاشك ان قرب هذه المدن من الامبراطورية البيزنطية ووقعها على خطوط التجارة الدولية ابقى لها بعض صناعتها ونشاطها التجاري الملحوظ مما زاد في قدرتها على مقاومة التحول نحو الاقطاع خاصة وان هذا الواقع قد اعني الحاجة الى النظام الاقطاعي وميراته المتمثلة في انهيار السلطة السياسية وحاجة الفرد الى الحماية باللجوء الى الاقوى. وهكذا كانت المدن الايطالية هي وحدتها القادرة على حمل لواء البعث الجديد في اوروبا بوجه نظام الاقطاع يساعدها في ذلك عوامل رئيسية ثلاث هي :

1 — لم تتطفيء شعلة الحضارة الرومانية تماماً في شبه الجزيرة الايطالية أيام العصور الوسطى رغم ما تعرضت له البلاد من انحطاط وتدحرج بعد انهيار الامبراطورية الرومانية. فقد بقيت معظم اثارها من ابنيه شاهقة ومنشآت وحصون وقائيلاً ومخطوطات علمية وادبية ما كان يبعث في نفوس الاطاليين مشاعر الفخر والاعتزاز بالماضي الحضاري العريق الذي كانت اثاره الشاخصة امام اعينهم تمنى انفسهم بالعودة الى ذلك الماضي ببعشه من جديد.

«في مراكز العلم الأوربية، لم يكن هناك عالم واحد من بين العلماء إلا و مد يده الى الكنوز العربية هذه يغرس منها ماشاء الله ان يعرف... ولم يكن هناك كتاب واحد من بين الكتب التي صدرت في اوروبا انداك إلا وقد ارتوت صفحاته بالي ال العم من اليابس العربية واحد عنها ايماءاته و ظهر فيه تأثيرها واضحًا كل الوضوح ليس فقط في كلماته العربية المترجمة بل في محتواه وأفكاره.

فالكتب التي درسها الدارسون واستند اليها الباحثون كانت كتب ابن سينا وابي القاسم الزهراوي والرازي وابن زهرة وحنين بن اسحاق» *

استندت هذه الشهادات والاعترافات الى حقائق تاريخية لا يمكن تغاضيها، ولكن تكون الصورة واضحة لابد من دراسة واقع اوروبا مقارنة بواقع العرب المسلمين قبل قيام النهضة الأوربية، ففي القرنين التاسع والعشر الميلادي كانت الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس في اوج عظمتها بينما نجد أن مراكز الثقافة في الغرب كانت عبارة عن ابراج يسكنها امراء اقطاعيون متوجهون يغدون انهم لا يقرؤون. واستمرت همجية اوروبا هذه زمنا طويلا الى ان ظهر بعض الميل الى العلم في القرنين الحادى عشر والثانى عشر، ولم يكن امام الاوربيين غير التوجه الى العرب اصحاب الحضارة والرسالة الخالدة.

لقد كانت علاقات العرب المسلمين باوروبا قديمة بدأ بشكل علاقات تجارية كان لها الأثر في احتكار الاوربيين المتخلفين بالحضارة العربية. وكانت هناك ثلاثة طرق للاتصال هي : طريق جبال البرانس وطريق البحر المتوسط وطريق الفولغا المؤدي الى شمال اوروبا باحتياز بلاد روسيا. وكان الطريقان الاولان يسلكهما عرب الاندلس اما الطريق الثالث فكان يسلكه عرب المشرق. وفيما يتعلق بالبحر المتوسط فقد كان بحيرة خاضعة للسيادة العربية يرسل العرب من خلاله الى جميع

* زغيريد هونكه . شمس العرب تستطيع على الغرب ، الطبعة السادسة بيرون ١٩٨١ ، ص ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

الاثنين برفضه الالاهوت والدين ككلية. وعموما فإن عصر النهضة او الانبعاث قد اتصف بالطابع العلماني البعيد بالقدر الذي سمحت به الظروف عن نفوذ الكنيسة الكاثوليكية وتوجيهاتها وقد ساعد على ذلك انتقال حركة المجتمع في اوروبا من الريف الى المدن حيث المال والتجارة مما اضعف بشكل واضح قدرة الكنيسة في السيطرة على عقول الناس وافكارهم. لكن ذلك لم يمنع الكنيسة من معاقبة العديد من فلاسفه النهضة بالحرق بالنار وما شابه بحججة الكفر والحاد لانهم قد انتهكوا حرمة اسرار الله) وتجاوزوا على الاعراف والتقاليد السائدة انداك.

ان تأكيد فلسفة عصر النهضة على الانسان كأساس لحركتها وهدف من اهدافها لا يعني ان الافكار الانسانية كانت واحدة في نظرها ورؤيتها للامور، فقد نشأت مدارس متعددة في هذا المجال، كذلك اختلفت الفلسفه في المانيا في نهجها عن تلك التي قامت في فرنسا او انجلترا. فقد اكد الالمان على ما اسماه ارازمس (فلسفة المسيح) فالأخذت النهضة طابعا فكريًا عميقا مس قضايا الكنيسة بشكل مباشر مما كان له الأثر في حركة الاصلاح الديني. أما الفرنسيون فقد تمسكوا بدراسة القانون الروماني القديم في حين استندت انجلترا على القضايا الفلسفية والجمالية والادب والمسرح مع وجود نتاجات دينية. ومع هذه وتلك كان الانسان هو المحور الذي اهملته العصور الوسطى من قبل.

١— اثر الحضارة العربية الاسلامية في نهضة اوروبا :

اعترف العديد من المؤرخين والباحثين الاوربيين بفضل العرب على اوروبا، واكدوا ان الاوربيين يدينون للعرب بحضارتهم التي بدأت بعصر النهضة. وفي هنا الصدد يقول المؤرخ الانجليزي جوستاف لوبيون في كتابه حضارة العرب انه «اذا كانت هنالك امة نصر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعلم الزمن القديم فالعرب هم تلك الامة لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان» وقال مسييو ليبرى الفرنسي، «لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة اوروبا عدة قرون». أما الباحثة الالمانية زيفريد هونكه فقد كتبت في كتابها الشمين «شمس العرب تستطيع على الغرب» تقول .

وعند دراسة عصر النهضة في أوروبا ترد أسماء كثيرة لعلماء أوربيين على أنهم أول من اخترع أو اكتشف أموراً وعلوماً لم تكن معروفة من قبل في العالم. لكننا عند دراستنا لتاريخ تلك العلوم من خلال الشواهد التي جاء بها الباحثين الأوروبيين والعرب نجد أن اسس النهضة الأوروبية من علوم واداب هي من منجزات الحضارة العربية الإسلامية وانها انتقلت إلى الغرب بالاتصال والترجمة من العربية. وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن صناعة الورق عماد النهضة الأوروبية قد عرفها العرب منذ القرن الثامن الميلادي في العراق ومصر. أما البارود الذي كان من العوامل الرئيسية في انتصار الملوك على الأقطاعيين وإنهاء سلطتهم فقد عرف العرب نظرية تركيبة وخصوصاً (البارود المندفع) منذ القرن الثاني عشر واستعملوه في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. وقد وصلت معلومات البارود إلى أوروبا عن طريق الترجمة، وأول من استعمله في أوروبا هم عرب الاندلس في النصف الأول من القرن الرابع عشر في معارك بازا واليكانات والجزيرة. واستعمله العرب المسلمين ضد الحملة الصليبية السابعة ، وتقول المصادر ان العرب قد استعملوا البارود القاذف كأداة دافعة للصواريخ في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. ففي كتاب الحرب المؤلفه حسن الرماح وفي كتب أخرى عالجت شؤون الحرب نجد أن الحديث يدور فقط حول المواد المتفجرة والأسلحة النارية وحول «بيضم متحرك حارق» كان ينطلق كقدائف نارية قاصفة كالرعد. وفي مجال الاستكشاف الجغرافية التي تمثل أحد مظاهر العصور الحديثة — كما سنتناوها فيما بعد — فإن البوصلة والأسطراط اللذان استعن بهما العرب ^ع وغيرهما للإبحار والاستكشاف هي من صنع العرب. ولاصححة لما يقوله البعض من أن ^{فلا} كانوا المولود في إيطاليا هو مخترع البوصلة . في حين أنه لم يكن الشخص الأول في أوروبا الذي عرفها، ففي سنة 1269 نقل بطرس فون ماريكور عن العرب المسلمين مباشرة معلوماته عن المغناطيس وكيفية استعمال البوصلة وبعد ذلك بخمسين سنة زعم إمالفي انه اكتشف البوصلة.

وفي مجال علم الطبيعة الحديث والفيزياء والبصريات فإن العالم العربي الحسن بن الهيثم البصري المولود في العراق (965 - 1039) له فضل كبير على أوروبا بهضتها في هذه العلوم. فقد سيطرت نظرياته على العلوم الأوروبية حتى يومنا

الماضي الأوروبي منتجاتهم الصناعية والزراعية. وتدل النقود المكتشفة في أوروبا على مسالك الطرق التجارية العربية في أوروبا، فقد كانت سواحل بحر قزوين مركزاً لجتماع تجار دمشق وبغداد وسرقوسطة وتفلسيس حيث ينطلق التجار إلى إفريقيا وأوروبا الشمالية، وقد وجدت مئات النقود العربية في فنلندا وعموم جزر بحر البلطيق. وتدل تواريخ النقود التي وجدت في روسيا من مصب نهر الفولغا إلى شواطئ بحر البلطيق أن التجارة قد بدأت في وقت مبكر من القرن الثامن الميلادي وأخر تاريخ لتلك النقود هو سنة 1040 ميلادية حيث يذكر خلفاء بني العباس بكثرة فيها. إن هذه المقدمة تدلنا على أن دخول العلوم العربية إلى أوروبا لم يكن مفاجئاً، وإن الطرق التي دخلت فيها تلك العلوم هي الاندلس وصقلية وإيطاليا والخروب الصليبية. وكانت الترجمة من العربية إلى اللاتينية هي بداية الطريق لاطلاع أوروبا على إنجازات العرب المسلمين الحضارية، فمنذ سنة 1130 بدأ مكتب للترجمة عمله في طليطلة واستمرت الترجمة مع عصر النهضة، فترجمت كتب الرازي وأبي القاسم وأبن سينا وأبن رشد. كما ترجمت إلى اللاتينية الكتب التي ترجمها العرب عن اليونانية مثل كتب جالينوس وسقراط وأفلاطون وارسطو واقليدس وارخيديس وبطليموس، فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاثة كتب. ويعرف الأوروبيون أنه لولا العرب لما اطلعوا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها ككتاب أبولينيوس في المخروطات وكتاب جالينوس في الأمراض السارية وكتاب ارسطو في المجاورة.

كان طلبة العلم من الأوروبيين يسافرون إلى الاندلس والمشرق العربي . ويقول الباحثون الأوروبيون انه لم يظهر في أوروبا قبل القرن الخامس عشر الميلادي عالم لم يستنسخ ما في كتب العرب، فعلى كتب العرب وحدها اعتمد روجر بي肯 وللينارد البيزري وارنولد الفيلنوف وريمون لول وسان توما وألبرت الكبير والأذفونش العاشر القشتالي . ويدين البرت الكبير لابن سينا ، وسان توما في فلسنته لابن رشد. لقد بقيت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية المصدر الوحيد تقريباً للتدرس في جامعات أوروبا خمسة أو ستة قرون، بل ان كتب ابن سينا في علم الطب كانت تدرس في أوروبا حتى أواخر القرن الثامن عشر. وكانت فلسفة ابن رشد الحجة البالغة للفلسفة في الجامعات الأوروبية منذ أوائل القرن الثالث عشر.

نريد ان نتطرق الى كل صغيرة وكبيرة فالخوارزمي وعلم الجبر اشهر من نار على علم وقد عرف الاوربيون اسلوب الرياضيات عن العرب وهناك العديد من المثلة التي تحتاج الى مؤلفات.

ب - مظاهر عصر النهضة :

1 - حركة احياء التراث

وهي محاولة العودة الى التراث اليوناني والرومانى لدراسته والتعرف على ما فيه من علم ومعرفة. وتعتبر هذه الحركة من ابرز وربما من اول مظاهر عصر الانبعاث . وقد ظهرت في القرنين الاخرين من القرون الوسطى 1300 - 1500 عندما اخذ المثقفون في المدن يهتمون بالتنقيب عن الاثار والمخلفات الادبية اليونانية والرومانية القديمة ودراستها والاستفادة منها.اما قبل هذين القرنين من العصور الوسطى فقد كانت الكنيسة ترى في تراث القدماء صورة لوثنيتهم وبالتالي لا فائدة من احيائه لما فيه من قيم وفلسفات ومثل لا تقرها المسيحية. الا ان تكاثر المدارس والجامعات وظهور طبقة المتعلمين والمثقفين في المدن في اواخر العصور الوسطى قد حطم ذلك الحصار الذي فرضته الكنيسة . وقد كان للعرب المسلمين في الاندلس دور كبير في توجيه المثقفين والمتعلمين نحو اثار اليونان القديمة بما ترجموه عن اليونانية الى اللغة العربية ومن ثم الى اللاتينية .

بدأت حركة احياء التراث بالبحث عن الخطوطات اليونانية واللاتينية وجمعها ودراستها . وساهم حكام المدن الإيطالية الاترياء في هذه الحركة بتشجيعهم الباحثين ماديا . وقد تنافست البيوتات الحاكمة في ايطاليا باقتناء الخطوطات . وهاجر الكثير من الإيطاليين الى القدسية للبحث عن تلك الخطوطات ولدراسة اللغة اليونانية والتعمر في فنونها وقواعدها . وكان اشهر هؤلاء الإيطالي فييليفو (1398 - 1481) الذي اصبح من ابرز علماء اليونانية في عصره . كما نشطت حركة الترجمة، فترجمت الكثير من مؤلفات افلاطون وارسطو وسقراط من اليونانية الى الإيطالية، ولاشك ان سقوط القدسية سنة 1453 بيد العثمانيين قد ادى الى نشاط حركة احياء التراث، فالعلماء الذين وفدوا على ايطاليا من بيزنطة شاركوا بجد في هذه الحركة وفي نشر التراث اليوناني فيها.

هذا . فعل اساس كتابه (المناظير) نشأ كل ما يتعلق بالبصريات في اوروبا فأخذ عنه بروجر يكن الانجليزي والالماني فيتللو. اما ليونارد دافنشي مخترع الله (التصویر الشفّع) او (اللة المعتمة) فقد اوحى اليه افكار ابن الهيثم بأمور كثيرة من جانب آخر اثبت ابن الهيثم خطأ نظريات اليونان في علم الطبيعة فقد قال إقليدس وبطليموس ان العين مجرد ترسيل اشعة الى الاشياء التي ترى رؤيتها فأعلن ابن الهيثم خطأ ذلك لأن الاشكال المرئية هي التي تعكس الاشعة فتبصرها العين . كما قال ابن الهيثم ان كل الاجسام السماوية بما فيها النجوم الثابتة تشع ضوء عدا القمر الذي يأخذ نوره من الشمس.

وفي علم الفلك كان العرب المسلمون هم السباقين في خوض غماره لينتقل بعد ذلك الى اوروبا. فقد بنى الخليفة المأمون (مرصد) الشهير في بغداد وأخر في دمشق. وكذلك فعل الفاطميون في القاهرة اضافة الى مرصد عضد الدولة في حدائق قصره ببغداد. وقد بلغ تقدم علم الفلك كثيرا حيث ان الفلكي عبد الرحمن الصوفي (903 - 986) اصدر فهرس النجوم ببغداد صاحب فيه اخطاء اليوناني بطليموس وأبخس.

اما في مجال الطب فان ما أنجزه ابن سينا والرازي قد عاش مع الاوربيين حتى القرن السابع عشر واصبح لقب (روح ابن سينا) يفخر به كل طبيب في اوروبا. اما ابو بكر محمد بن زكريا الرازي فقد كان كتابه الوحيد في كلية الطب بباريس الذي يضم كل المعارف . وضل المرجع الاساس في اوروبا مدة 400 سنة دون ان يزاحمه احد . واعترف الباريسيون بقيمة وفضل الرازي الذي اطلقوا عليه اسم (رازاں) فأقاموا له نصبا في باحة القاعة الكبرى في مدرسة الطب وعلقوا صورته في قاعة اخرى بشارع سان جرمان.

ويدين الطب في اوروبا لعلم الكيمياء العربي بسلسلة من اشكال العقاقير واشهر من اعتمد الاوربيون عليه في هذا المجال هو العالم النباتي ابن البيطار . والحقيقة ان العرب المسلمين هم المؤسسين الحقيقيون لمهنة الصيدلة . وكان الخليفة المنصور اول من افتتح الصيدليات العامة سنة 880 ميلادية وتوسعت ایام المأمون فاصبحت تحت اشراف الدولة وأصبح لمهنة الصيدلة اجازة تمنح من متخصصين فكان ابن البيطار عميد الصيدلة في القاهرة يمنح اجازة العمل بهذه المهنة . ولا

الأخلاق والخير. وهكذا نجد ان الانسانين اجتهدوا في دراستهم للتراث اظهار ما فيه من تأكيد لقيمة الانسان بما يتافق مع نظرتهم الانسانية الجديدة.

لقد ظهرت حركة الانسانين لأول مرة في ايطاليا ومنها انتشرت الى مدن اوروبا الأخرى وخاصة المدن الفرنسية والالمانية والبولندية، ولم يكتفى الانسانين في ايطاليا بدراسة الانتاج الفكري القديم بل حاولوا تقليل الكتاب القدامى في طريقة واسلوب الكتابة وترفعوا عن الكتابة باللغة الايطالية، اذ لم تكن اللغات القومية في نظرهم صالحة للتعبير عن الأفكار الدقيقة او العميقه. وقد سار على هذا النهج الكتاب الاولى لعصر النهضة امثال دانتي وبوكاشيو.

ويعتبر فرانسيسكو بترارك رائد الحركة الانسانية وزعيمها في ايطاليا. Francesco Petrarca لما كان له من فضل في بعث الفكر القديم وبصورة خاصة اللاتيني منه . ولد بترارك سنة 1304 في فلورنسا وامضى حياته الدراسية الاولى في توسكانيا، وقد ارسله والده فيما بعد الى مونبلييه لدراسة القانون ولكن لم يستسغ تلك الدراسة وتحولت اهتماماته الى دراسة الاداب القديمة، فدرس تاريخ روما وتعرف الى ادابها واجاد الكتابة باسلوب مفكريها ، فأحب عالمهم وما كانوا عليه من قوة وسُؤدد واجداد. لقد استثار اهتمام بترارك ايضا بالاداب اللاتينية القديمة فجمع كلما وصلت اليه يده من خطوطات واثار ومخلفات رومانية.

وقد عرف عن بترارك جرأته في عرض افكاره حتى وان كانت مخالفة لتعاليم الكنيسة وتوجهاتها بعيدة عن معتقدات الناس. كان بترارك يرى ان الانسان يجب ان يتم اولا بحياته على وجه الأرض قبل ان يوجه اهتماماته الى اشياء تخص الحياة الاخرة، وهذا رأيناه في حديثه عن مشعوقته لورا يخرج عن مألف اهل زمانه فيعبر بصراحة وحرية عن عواطفه واحاسيسه تجاهها، وهي امور لم تكن مقبولة كثيرا في ايامه. لقد هاجم بترارك الكنيسة بقوة وصراحة وتمنى ان يبدأ الشعب الايطالي بقيادة العالم نحو فلسفة جديدة . ورغم عدم تحقيق أمنيته هذه فإن النهضة الاوروبية في ايطاليا تأثرت بارائه وكتاباته وكانت قصائده موضوع اهتمام الادباء الايطاليين يشرحونها ويحللونها ويحاولون محاكتها.

لقد أدت هذه الحركة الى تغيير نظرة الناس الى نتاج الرومان واليونان القدماء، فقد اصبح بالنسبة لهم تراث فكري قائم بذاته يمكن فعلا تذوقه وفهمه والعمق في دراسته للتعرف على ما كان عند القدماء من افكار ومعان انسانية بعض النظر عما اذا كانت هذه الأفكار منسجمة أم غير منسجمة مع المعتقدات الدينية لعصر النهضة.

اما هذا الرخم المتتصاعد باتجاه احياء التراث والتمسك به اضطررت الكنيسة الى التخلی عن مواقفها المتردمة واقتلت بمبادرة من البابا نفسه على المشاركة في حركة احياء التراث من الجانب الذي يجعل تأثير الفكر اليوناني والروماني في الفكر المسيحي المعاصر محدودا في الاطار العلمي والادبي ولا يتجاوز الاطار العقائدي. ولعل الدافع في هذا هو خوف روما من ان تصبح احد المدن الايطالية عاصمة للفكر الحديث فتنافسها في زعامتها ومكانتها في ايطاليا. وهذا نجد ان النصف الثاني من القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر قد شهدتا بآيات جماعا حوضهم في روما العديد من رجال العلم والاداب والفنين اندفعوا بحماسة كبيرة يدرسون التراث.

Humanisme

2 — الحركة الانسانية : L'Humanisme

ارتبطت الحركة الانسانية باحياء التراث وقد اطلق اسم الانسانين على هذه الحركة لأن المعنين بها كانوا يهتمون بدراسة الانسان نفسه وهو امر جديد، ذلك ان العصور الوسطى تناسلت انسانية الانسان فتفشت افكار التقشف والصوم واذلال الجسد والمهانة والاهتمام بالروح فقط وبعلاقة الانسان بالخالق واليوم الآخر. لهذا لم يجد الفن ارضا له في تلك العصور التي كانت فلسفتها ترتكز اساسا على الروح وليس الجسد ، فلم يكن هناك داع لاظهار مفاتن الجسد او الاهتمام بالانسان في الادب او الفنون كالرسم والنحت. في حين ان مفكري عصر النهضة انطلقا من منطلق جديد وهو الاعتزاز بالانسان والتأكيد على الاعتزاز بالنفس والثقة بصورته واهميته ودوره الكبير في الحياة. فكانت صورة الانسان عندهم مثل القوة والامان بالذات والثقة بالنفس، فهو فنان واديب وشاعر متذوق للفنون والاداب، متعشق للجمال اينما وجد في الروح كما في الجسد، متمسكا بمباديء

الصرارة
الانسانية

فلم يعد الفن مجرد عملية استنساخ آل لقوالب معينة تفرضها الكنيسة وإنما أصبح تعبراً حراً عن عقلية الفنان الذي تميز في عصر النهضة بكتشفيه النقاب عن جمال الآثار ومحاكاتها في الروح والتعبير وتقييده بالخلق والابداع. وما كان الموضوع الأساسي لمرحلة النهضة هو الإنسان فقد اتجه الفنانون من خلال النحت والرسم إلى إبراز قوته وسيطرته وتمتعه، فصوروا الرجل جميلاً والفتيات عاريات.

لقد ظهرت النهضة الفنية في إيطاليا مبكرةً منذ القرن الخامس عشر ولعبت المدن الإيطالية دوراً هاماً في طريق تقدم الفنانون لأنها كانت مراكز للحياة الفنية يتنافس حكامها على الظهور بمظهر رعاة الفنون ومالكي أكبر وافخر مجموعة من النفائس الفنية، وكانت روما بطبيعتها على رأس المدن الإيطالية التي احتضنت الفن والفنانين، ذلك أن روما تمتلك تاريخاً وأثاراً ومجداً قدماً جعلت فنان عصر النهضة ينهل من وحي الماضي ممزوجاً بفكر الحاضر الحر الذي يقتبس ويبتكر. وقد ساعد بعض البابوات على ازدهار النهضة الفنية في روما فشيدت كنيسة القديس بطرس حيث تعاقب على تزيينها وزخرفتها كبار المعماريين والرسامين والنحاتين. ومن أشهر البابوات الذين استدعوا الفنانين . البابا جول الثاني (1503 - 1563) والبابا ليو العاشر حيث تم في عهديهما تزيين قصر الفاتيكان الذي تحلى فيه أبدع ما لدى فناني عصر النهضة من نبوغ وعبرية وخيال .

لم تقتصر رعاية الفنان على روما بل كانت ميلانو مهدًا آخر لنشاط النهضة الفنية . وكذلك فلورنسا وغيرها من المدن الإيطالية . ويمكن اعتبار فن العمارة والنحت والرسم الأساس الذي ارتكزت عليه النهضة الفنية في إيطاليا :

1- فن العمارة :
يعتبر برونليسكي Brunelleschi من أبرز معماري عصر النهضة في إيطاليا ، فقد درس فنون العمارة الرومانية القديمة ، وخصوصاً عمارة المسارح والمعابد وحاول أن يحيي بعضها في أبنية فلورنسا ، وقد حقق ذلك في كاتدرائية المدينة التي بنيت آنذاك . وقد أصبح لهذا المعماري مدرسة انتمى إليها العديد من معماري عصره في إيطاليا فهافتوا على دراسة مختلفات الرومان العمارة وأساليب عمارتهم . إلا أن هؤلاء المعماريين لم يأخذوا من التراث كما هو ولم يقلدوه بشكل جامد بل

ظهرت داخل الحركة الإنسانية اتجاهات فكرية مختلفة تتجلّت بصورة خاصة عن مدى تأثير الدارسين بأفكار وآراء القدماء وفلسفتهم وارتباط ذلك بالواقع الفكري والعقائدي لأوروبا في ذلك الحين وبصورة خاصة بالمسيحية . واهتمام هذه الاتجاهات هي :

أ - التيار الانساني المسيحي :

يرى هذا التيار بشكل اساسي عند المفكرين الذين كانوا اصلاً شديدي الارتباط بالمسيحية وبالكنيسة، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا معجبين بالتراث وفيه من آداب وفنون فعملوا على احيائه ونشره مع محاولة للتوفيق بين ما في ذلك التراث من افكار وبين واقعهم العقائدي وتفكيرهم المسيحي . وكان فيسين Marsile Ficin ابرز رواد هذا التيار . فالهدف الاساسي لفلسفته كان الوصول الى الله عن طريق الفلسفة الافلاطونية، أي انه اراد استخدام الفكر الاغريقي القديم لتحقيق هدف مسيحيي بالدرجة الاولى وهو الوصول الى الله . مثل المساوات الاصلية

ب - التيار الوثني :

كان رجال هذا التيار اقرب الى تفكير فلاسفة المدرسة العقلانية الحديثة وكان أوضح من غيره عن هذا الفكر هو بومبونازи Pomponazzi . الذي آمن بأفكار ارسطو وتمكن بالتعرف عليها مباشرة عبر النصوص اليونانية القديمة رافضاً كل ما اضافه الى الفكر الاسطعي الفيلسوف المسلم ابن رشد والقديس توما الاكويني . المنهجية المعاصرة

3 - النهضة الفنية

انعكست حركة احياء التراث بشكل واضح في النهضة الفنية التي تحلت من خلالها معانٍ الفنون الجميلة . ان الحركة الفنية كانت موجودة في اوروبا منذ مطلع القرن الثاني عشر للميلاد حيث تقدمت وتطورت في العصور الوسطى بعض فنون النحت والعمارة، الا ان الذي يميز النهضة الفنية عن الحركة الفنية في العصور الوسطى هو ان فن العمارة بالذات بدأ يأخذ اتجاهات جديدة بحكم تأثير موجة احياء التراث، يضاف الى هذا ان النهضة الفنية تميزت عن الحركة الفنية في العصور الوسطى انها اكملت على الانسان من خلال النحت والرسم

ولانجلو اعمال اخرى في النحت تنطق بعقريته مثل تمثال العذراء والمسيح المقام في كنيسة القديس بطرس في روما وتمثال داود العظيم المنحوت من الرخام وقد نصب هذا التمثال امام قصر الامارة في فلورنسا عام 1504.

ج - فن الرسم

كان فن الرسم قد بلغ مرحلة لا يأس بها في اواخر العصور الوسطى انه كان حبيس اتجاهات الكنيسة وخدمة اغراضها . وكان الرسم يتم على جدران الكنائس والقصور او على الخشب . اما في عصر النهضة فيعتبر الايطاليون في الرسم من عصر النهضة بالدرجة الاولى ، ففي مطلع هذا العصر تعلم الايطاليون من الرسم الريتىي واساليب تحضير الاصباغ ومزجها بالزيت ، وبدأ الرسامون يعالجون مواضيع بعيدة عن الروح الدينية مستمددين افكارهم من الطبيعة والحياة والانسان والجسد . ويعبّرون في رسومهم عن العواطف والمشاعر والغرائز والاحاسيس . وعندما سادت افكار عصر النهضة بشكل واسع اخذ الرسامون من الانسان موضوعاً لذاته فابزوا قوته وركزوا على التواحي الجمالية في الجسد وتحرر بعضهم من قيود العصور الوسطى فصورو الجسد عاريا .

وكان ابرع رسامي عصر النهضة هو ليونارد دافنشي (1452 — 1519) الذي بلغ قمة الابداع في رسمه لوحة العشاء الاخير الشهيرة ، وقد دل بلوحته هذه انه كان ممتعاً في ادراكه للنفس البشرية وانفعالاتها وردود افعالها من خلال المنظر الرائع الذي جمع بين المسيح وحواريه الاثني عشر وهو يعلن لهم ان احدهم سوف يخونه . وقد ظهر وجه المسيح بصفاته الروحانية وهدوئه الكبير بينما ظهر على وجوه اتباعه الاضطراب والوجوم . وفي عام (1506) رسم دافنشي في فلورنسا رائعته الشهيرة الموناليزا (جيوكندا) وهي لوحة لسيدة شابة جميلة كانت متزوجة من ضابط يكبرها سنا اسمه جيوكندا ، وكان حاماً فلورنسا معجباً بجمالي المادى الحزين فأمر دافنشي برسوها ، فوضع الاخير كل طاقاته ونبوغه ومواهبه في رسم تلك الصورة التي استغرق عمله فيها اربع سنوات حتى خرجت رائعة خالدة ما تزال موضع الاعجاب والنقاش حتى ايامنا هذه .

جعلوا العمارة الجديدة في عصر النهضة معيبة عن روح العصر والبيئة ، وتميز كل واحد منهم بطابع خاص ، أي أنهم ربطوا الماضي بالحاضر فانتجو فناً معمرياً تميز به عصر النهضة عن غيره من العصور .

تجاوزت حكام ايطاليا وكذلك الباباوات مع المعماريين الايطاليين ووضعوا تحت تصرفهم كل ما احتاجوه من اجهزة وامكانيات ، واندفعت البابوية الى الحد الذي لم تعارض فيه تأثير المعماريين بالابنية الرومانية ذات الطابع الوثني مما اعطى المعماريين حرية مطلقة في العمل والابداع

ب - فن النحت :

اخذ فن النحت في تطوره منهجاً في الرغبة الجامحة بالتزود من تراث القدماء من رومان ويونان . وقد اوجد دوناتيللو بصورة خاصة مدرسة جديدة في اعمال النحت عرفت بالمدرسة الطبيعية وكان هو رائدتها . اعتبر دوناتيللو اعمال الطبيعة مصدراً اساسياً من مصادر الالهام فأبرز في اعماله جمال الطبيعة وتناسق الاجسام وتعابير الوجه وسعى دوماً لجعل تماثيله طبيعية عادية بعيدة عن التكلف .

تأثر ابرز نحاتي عصر النهضة مايكيل انجلو بالمدرسة الطبيعية وتأثر في الوقت نفسه بالمدارس الاغريقية والفلسفية اليونانية ونظرتها للانسان ، فحاول دائماً ان يبرز في اعماله القوة والعظمة مؤكداً في تصويره للجسد على العضلات موضحاً تقاطع الجسم محاولاً تدويقها واعطاء الاشخاص تعابير جمالية مثالية .

ولد انجلو في مدينة كابرنسه بالقرب من فلورنسا وذاع صيته حين قام بفتح المجموعة الرخامية الشهيرة التي تمثل العذراء والطفل ومع ان انجلو كان يفضل فن النحت على اي فن اخر الا انه كان متفوقاً في الرسم وهندسة البناء مغرياً بكتابه الشعر . وقد دعاه البابا بوليوس الثاني الى نحت ورسم سقف كنيسة سيسيني Sistine في الفاتيكان ، فامضى انجلو اربعة اعوام ونصف يقوم بتلك المهمة التي بذل فيها بذل ما عنده من فكر وابداع فني . وكان انجلو يعمل مستلقياً على ظهره فوق منصة عالية حتى انجز انتاجه الرائع الذي يعتبر اعجوبة من اعاجيب الفن في التاريخ .

الإيطاليين وخصوصاً بعد اختراع الطباعة، والاهتمام المتزايد الذي ابداه سكان المدن عامة بالعلوم والأداب والفنون ، قد ادى الى ان يجد جماعة الانسانين انفسهم مدفوعين بقوة الى استعمال الإيطالية لانهم وجدوا لكتاباتهم بها رواجاً وانتشاراً. لأن جماهير المدن كانت تجهل اللاتينية بحكم صعوبتها وتعقيد قواعدها، فاصبحت الإيطالية لغة الأدب والشعر والفلسفة. ولم يقتصر الأمر على إيطاليا وحدها، فقد فرضت الفرنسية في القرن السادس عشر وجودها كلغة ادب وثقافة، وفي القرن نفسه فرضت اللغة الإسبانية نفسها في إسبانيا.

لقد كانت الكتب ولقرون عديدة احتكاراً على الحكام والآثرياء ورجال الدين الا ان استخدام اللغات القومية وظهور الطباعة ساعد على نشر العلوم بمختلف صنوفها. وقد كان لانتشار التجارة وقيام المدن وسهولة الاتصال بين الناس اثره في عملية انتشار المعرفة. ولاشك ان الطباعة قد اذت الى ان تصبيع الكتب رخصة التكاليف فانخفضت تكاليف النشر الى الخمس مما ساعد على اقتنائها من قبل عامة الناس.

لقد تميزت ادب عصر النهضة بالكتابية التي تدخل السرور والاعجاب والتسليمة على القارئ ، ولم تهتم بوعضه، ولاق المسرح اهتماماً كبيراً من قبل ادباء النهضة، فحلت المسرحيات الكوميدية، والمأساوية محل المسرحيات الدينية التي كانت من سمات الأدب في العصور الوسطى. اي أنها كانت أكثر واقعية وقوى التقاء بالعواطف الحقيقية للانسان. وبهذا أصبحت الأدب قومية يعبر بها الأديب عن شخصيته وشخصية شعبه.

5 - نطور علمي التاريخ والسياسة

لم تكن النهضة الأدبية والعلمية سطحية في دراستها للظواهر والعلوم بل كانت متعمقة تعتمد التحليل والاستنتاج والبحث العلمي والتفكير المنطقي التحرر من قيود وسلمات العصور الوسطى. وهذا لم يعد الناس يتقبلون الاساطير التي كانت الكنيسة تغذي عقولهم بها، ويدأوا يرفضون التاريخ القائم على جمع الروايات وسردها دون التأكد من صحتها وواقعيتها فنشأ اتجاه جديد في علم التاريخ يعتمد على التحليل والاستقراء والاستنتاج باخضاع الرواية التاريخية للبحث

لم يكن دافنشي رساماً فقط بل مارس النحت والعمارة والرياضية والهندسة وكان يهوى الأداب والموسيقى والشعر والجيوشيا وعلم وظائف الأعضاء وعلم التشريح. ودرس الفن في بولورنسا في مرسم أحد كبار الرسامين والنحاتين.

كان الى جانب دافنشي روائييليو (1483 - 1520) الذي اشتهر اسمه رغم صغر سنه وقد سحرته اعمال ليوناردو دافنشي ومايكال انجلو فتأثر بهما كثيراً واعتبر ثالث الثلاثة الكبار عمالقة الفن. تعلم روائييليو ادراك الابعاد من استاذيه بيروجينو الذي علمه قواعد الفن. واستوعب روائييليو اساليب توزيع الضوء والضل في الرسوم من دافنشي وتتأثر بعصرية انجلو في دراسة الجسد الانساني ولكنه فاقمها في توافق الالوان، ولم يكن روائييلو تلميذاً يقلد استاذته بل استفاد منهم ثم فاقهم في الابتكار والابداع فكانت له شخصيته القائمة بذاته، واختلف عن استاذته في انه لم يكن واقعاً برسم نماذجه كما هي في الطبيعة بل كان يبدع فيها طبقاً للفكرة التي كونها في ذهنه.

دعا البابا يوليوس الثاني روائييلو للاشتراك في تزيين قاعات الفاتيكان، وقد استطاع في ستة اشهر ان يصنع بالتصوير الجبسي على الجدران رواع فنية تنطق بنبوغه وعقربيته ومنها «مدرسة اثينا» التي اوضح فيها خلاصة تاريخ الفلسفة (السر المقدس) التي لخص فيها تاريخ الكنيسة إضافة الى لوحاته العديدة والرائعة للسيدة العذراء. مات روائييلو في عز شبابه قبل ان تستنفذ النهضة الفنية منه كل طاقاته.

وأخيراً يجب ان لا يفوتنا ذكر النحات مايكال انجلو الذي كان رساماً ايضاً وقد ابدع في رسم سقف كنيسة سنتين التي مر ذكرها.

4 - النهضة الأدبية (ظهور اللغات القومية وانتشار المعرفة)

ذكرنا ان حركة احياء التراث تمسكت باللغة اللاتينية ، فكان الانسانيون يصررون على تقليد الاسلوب اللاتيني القديم في كتاباتهم بسبب اعجابهم به ولكنهم احد المقومات الأساسية للتراث. لذلك لم يحاولوا في بدء عصر النهضة استعمال الإيطالية، لغة الناس، باعتبارها لغة العوام ولكنها حسب رأيهم متخلفة غير قادرة على احتواء المعاني والافكار المعقّدة، ولكن انتشار العلم والمعرفة بين مختلف فئات

الدولة القوية وينصح ميكافيلي الامير ان يكون انسانيا وطاغية في آن واحد ، وادا لم يكن كذلك فلا بقاء له . وعليه ان يكون مخدعا متى اقتضت مصلحة الامة ذلك ، وان لا يجهل كيف يتصل من الموثيق والعقود متى ما شعر ان مبرراتها قد زالت خاصة اذا رأى أن الاستمرار بالالتزام بها لن يكون في مصلحة الدولة . وينصح ميكافيلي الامير ان لا يعطي الحرية للناس الا يقدر معين لانهم في كثير من الاحيان يسيئون استعمال الحرية ويستغلون مراكزهم . وان يكون الامير حازما قاسيا في اسلوب حكمه للرعية حتى يخشون بأسه ويحدرون بطشه ، ويسعى في الوقت نفسه إلى اسعاد شعبه باقامة المشاريع النافعة التي تدر عليهم بالخير وان يمارس الفضائل التي يحبها الناس اذا لم يجد ضررا في ذلك كأن يكون مخلصا أمينا وفيها . وبهذا يرهي ويخافه الناس ويحبونه في آن واحد . ولا يلزم ميكافيلي الامير بالالتزام بصورة دائمة بالفضائل لانه سيجد نفسه في حالات كثيرة مكرها على تخطيها او تجاهلها ، ومع ذلك فقد أوصى ميكافيلي الامير ان لا يحرم الناس كلية من ممارسة الحرية في ظل طاعة الحكم لكي يأمن كراهيتهم ومؤامرتهم التي قد تدبر ضده . وأخيرا رأى ميكافيلي ان الدولة التي لا جيش لها ستكون معرضة للخطر الداخلي والخارجي وعليه فعل الامير ان يجند جيشا وطنيا يخالص له ويربه وخدمه وأن يختار وزراءه وحاشيته من افضل الرجال وحكومائهم ويفتح بابه لاصحاب الموهب والكفاءات حتى تصبح حكومته مثالية تخشاها الرعية وتلتطف حوالها .

لقد وجهت لكتاب الامير في عصره وفي العصور التي تلته وحتى الان انتقادات عنيفة وقاسية لانه تخطى قواعد الاخلاق وتجاهل الفضائل المسيحية ولانه رأى في الجماهير وسيلة لتنفيذ اغراض الحاكم فقط . ومع هذا فإنه من المؤكد ان اراء ميكافيلي في كتابه الامير كانت في عصر النهضة المترکزات الحقيقة لأنظمة الحكم في اكثر بلدان اوروبا . ومن هذا المنطلق ومن منطلق ان الماضي يجب ان لا يحكم بظروف الحاضر فإن كتاب الامير يمثل واقع الحياة السياسية الاوروبية في مطلع العصور الحديثة .

والمباحثة وصولا الى الحقيقة التاريخية غير المزيفة . وكان فالا Valla ابرز المؤرخين الذين بناوا هذا المبدأ في دراسة التاريخ . ولعل اهم انجاز قام به فالا هو دراسته وتحليله وبكل جرأة لوثيقة كنيسة كانت تعتبر سند قانونيا وتاريخيا تقوم عليه سلطة الكنيسة الدينية وهي وثيقة (هبة قسطنطين) . لقد درس فالا بعناية ودقة هذه الوثيقة بطريقة استعمال اسلوب البحث العلمي التاريخي وذلك بمقارنة الاسلوب الذي كتب به هذه الوثيقة، فوجد ان اسلوبها مختلف عن اسلوب عصر قسطنطين في الكتابة فأثبت بطلانها.

لم يكتف فالا بما توصل اليه بل استمر ينتقد مذاهب فكرية وعقائدية كانت شائعة ومسلم بها . وقد دعا ابناء عصره الى اعادة النظر فيها . واما م هذه الحقائق التي توصل اليها فالا من خلال التحليل والاستنتاج اضطررت الكنيسة زمن البابا نيقولا الخامس الى قبول ما توصل اليه هذا المؤرخ بل انها عيته في مركز رفيع تقديرها لعلمه ولمنهجه الجديد في البحث التاريخي .

ومن المؤرخين الذين برزوا في هذه الفترة بشكل كبير هو ميكافيلي القاضي والمورخ والكاتب والدبلوماسي. نشأ في فلورنسا وحرص منذ صباه على تثقيف نفسه ثقافة تاريخية سياسية ، وتعرف على علماء فلورنسا وجماعاتها ثم التحق بخدمة الدولة بصفة امين سر المجلس الحاكم. وفي فترة الغزو الفرنسي لايطاليا اوفدته الدولة عدة مرات الى بلاط لويس الثاني عشر في فرنسا والى روما واكثر المدن الايطالية واتصل بايز قادة عصره، فاكتسب خبرة كبيرة وحصل على معلومات كثيرة عن اوضاع البلاد وعن اسرار السياسة الاوروبية والعلاقات الدولية.

وبعد اعتزال ميكافيلي الحياة العامة والعمل الوظيفي تفرغ لدراسة التاريخ الروماني والنظم والمجتمعات القديمة عامة وخرج منها بكتابه المشهور «الامير» وقد ضمن ميكافيلي كتابه هذا افكاره هذا افكاره عن اصول الحكم وفن السياسة مستوحيا اراءه من دراساته التاريخية عن الحكم اليوناني والامارات الايطالية منذ العصور الوسطى وحتى العصر الذي عاش فيه. وقد دون ميكافيلي افكاره على شكل نصائح يقدمها الى امير وطني تخيله منقذًا لايطاليا من الانقسام والغزو الاجنبي. واضعا نصب عينيه مبدأ (غاية تبرر الوسيلة) في حكمه حتى وأن اختللت الوسيلة مع المبادئ الخلقية الموروثة . فالامير الصالح في نظر ميكافيلي هو القادر على اتباع كل

ج - انتقال النهضة الى غرب اوروبا

أصبح ازارم رائد مدرسة خاصة به في الدراسات الانسانية جعلت له اتباع كثيرون في انجلترا وفرنسا والمانيا وهولندا .

واذا ما تناولنا موضوع النهضة في فرنسا التي شغلتها طيلة قرن تقريبا حروب المائة سنة ومشاكل العرش الداخلية ، فإن انتقال النهضة اليها قد تأخر الى مطلع القرن السادس عشر بعد غزو الفرنسيين لايطاليا . في هذا الوقت انتشر تدريس اليونانية في الاكاديميات الفرنسية وخاصة في باريس حيث حاضر اساتذة انسانيون في اليونانية واللاتينية القديمة . وما شجع نمو الحركة رعاية حكام فرنسا لها ففتحوا قصورهم لرواد النهضة وامدوهم بالمال والرعاية وأقاموا اكثر من مركز وأكاديمية للدراسات الانسانية مثل الكلية الملكية في باريس التي اقامها فرانسوا وجبان لا يفوتنا ذكر شارل الثامن الذي جلب معه من ايطاليا الى فرنسا عددا من فناني عصر النهضة فقادت في مطلع القرن السادس عشر منشآت وقصور ذات اسس ايطالية — فرنسية في معمارها وصار للفرنسيين في اواخر القرن فن يتسم بطابع النهضة الفرنسية تحلى بصورة خاصة في اساليب المعماري ليسكو الذي خطط قصر اللوفر . لقد اتصف الفرنسيون عند اقبالهم على دراسة التراث بشخصيتهم القومية وثقافتهم الفرنسية ، فجاء عصر النهضة في فرنسا اصيلا بعيدا عن تقليد القدماء في الاداب والفن والفلسفة .

اما في اسبانيا فقد كان اتصالها بالنهاية في ايطاليا قديما بسبب الوجود السياسي الاسباني في ايطاليا وهو عرش الفونسو الخامس الاراغوني في ميلانو ، ونشطت هذه الاتصالات في عهد البابا الاسباني كاليكست الثالث والاسكندر السادس حيث بدأ الانسانيون الاطفاليون ينشرون افكارهم بين الاسبان . يضاف الى هذا ان الدراسات اليونانية واللاتينية القديمة بدأت تدرس في جامعات هامة مثل اشبيلية والكالا التي برزت في وقت من الاوقات بصفتها ابرز مراكز الدراسات الانسانية في غرب اوروبا . الا أن قيام حركة الاصلاح الديني ووقف اسبانيا بقوة الى جانب الكنيسة الكاثوليكية ادى الى ظهور معارضة قوية للحركة الانسانية اداء النهضة من قبل الدولة الاسبانية والكنيسة مما ادى الى ايقاف تطورها وتقدمها .

لعبت عوامل عديدة دورا مهما في انتقال النهضة من ايطاليا الى اوروبا ، وكان في مقدمة هذه العوامل اختراع الطباعة الذي سهل عملية توزيع المؤلفات العلمية والادبية على جماهير الشعب ومنها كتب التراث التي امتد توزيعها ونشرها خارج ايطاليا . يضاف الى هذا ان الباحثين وطلبة العلم من بلدان اوروبا الغربية اخذوا يتربدون على جامعات ايطاليا واكاديمياتها للدراسة على يد الاساتذة الاطفالين . وقد كان هؤلاء الاربيون الغربيون متأثرين بفكر النهضة الاطالية معجبين بالتراث القديم وبعقلية الانسانين . من جانب آخر أخذ الانسانيون الاطفاليون يتجولون في اوروبا الغربية ليشرعوا بافكار النهضة وليعلموا الناس اداب القدماء وفنونهم . وقد كان لهذه الاتصالات اثرها بحيث ان جامعات اوروبية كثيرة استدعت اساتذة ومحاضرين ايطاليين ليدرسوا طلبتها فكر النهضة الاطالية وفنونها وآدابها .

لقد أدت هذه العوامل الى انتقال النهضة من ايطاليا الى اوروبا مما ساعد في ظهور مفكرين وعلماء اوربيين تبنوا النهضة في بلادهم وفي اوروبا عموما ومنهم (ازام) الذي يعود له الفضل الكبير في نشر فكر النهضة في بلده هولندا وفي كل بلاد اوروبا حيث اشتهر اسمه وارتفعت مكانته وكثرة طلابه . كان ازارم انسانيا درس علوم القدماء من يونان ولاتين وحضارة عربية اسلامية ، ونقل ما تعلمته الى الاربيين الغربيين وقد احتظر ازارم لنفسه نهجا خاصا مميزه عن الانسانين الاربيين ، فقد اراد ان يجعل من الدراسات الانسانية وسيلة لتقديم المجتمع وتخليصه من شرورة وشوائبها واصلاح الكنيسة ورفع مستوى رجالها لانه كان مؤمنا ايمانا شديدا بالmessiahية وتعاليم المسيح . وقد عمل على نشر الكتاب المقدس باليونانية مع ترجمة مبسطة باللاتينية لكي يطلع عليه عامة الناس ليعودوا ، كما كان يعتقد ، الى بناء المسيحية الاولى بما تمثله من بساطة وانسانية ورحمة .

زار ازارم اكثر الجامعات الاوروبية الغربية وحاضر فيها وصار له تلاميذ وأتباع ومحبين في كل مكان يعملون مثله على الاهتمام بالدراسات الانسانية ليس لذاتها كما كان يفعل الاطفاليون وإنما لاستغلالها من اجل اصلاح الكنيسة وتقديم المجتمع . لقد